صور وخواطر

بعـــد المرض

للأستاذ علي الطنطاوي

... يقولون إن الإنسان يأكل ليعيش ، ولكني أعيش في هذه الأيام لآكل . آكل بشراهة ونهم ، حتى أحس الامتلاء ولا يبقى في المعدة مكان لذرّة ... فأدع الطعام آسفاً ، وأنظر إلى الأطباق وما فيها نظرة الودّع الحزين ، ثم أقوم إلى كتابي فأفتحه ، أو إلى شباكي أطلّ منه ، أتلهى بهذا أو بذاك حتى أحس أو أتوهم أني أحس جوعاً ، فأدعو بالطعام ، أو تمضي ثلاث ساعات ، فآكل ولو لم أكن جائعاً ... ألم يقل لي الطبيب : كلْ كلّ ثلاث ساعات ؟!

ذلك لأني لبثت عشرين يوماً أشتهي قطعة الخبز ، فأطلبها وألح في طلبها ، فتمتنع عني ، وأحرمها فأراها في منامي ، وأحلم بها في يقظتي تجسمها لي أمانيّ وأفكاري ، فأتخيل أني قد نلتها ، فإذا أنا لم أنل إلا هذا اللبن (الحليب) الذي برمت به واجتويته ، والذي يفضل المريض رؤية عزرائيل على رؤيته يطالعه في الصباح وفي المساء ، والذي كرهت لأجله كل أبيض ، حتى بياض الفجر وبياض النحر ... والذي أصبح قذًى في عيني لا أطيق رؤيته ، وسمًّا في فيّ لا أقدر على تذوقه ... ثم فرّج الله عني بعد الضيق وأنالني ما أشتهي من الأطعمة وأريد ، فكيف لا أهجم عليها بشراهة ونهم ، وكيف تبلغ بي الحماقة أن أقوم عن المائدة وفي الأطباق بقية ؟

* * *

لا أكاد أشبع من الطعام ولا من القراءة ، ولا من النظر في هذا الفضاء الفسيح ، وهذه الجنات المتسلسلة تبدو من شباكي يعانق بعضها بعضا ، حتى يستاق آخرها في أحضان قاسيون . لا أكاد أشبع من شيء ، لأني خرجت من هذا المرض كمن ولد ولادة جديدة ، فهو لا يعرف الدنيا قط وهو ينظر إليها بعيني طفل ذكي يدهشه كل شيء ويود لو يمتلكه ويأكله أو تحتويه يده ... ولأني خرجت منه ضعيفاً مهدوداً ، ولقد كنت من قبله قوياً نشيطاً . استحممت يوماً في البحر ، ثم خرجت منه متوثباً متحفزاً ، أكاد أطير مما أحس في جسمي من النشاط ، فسرت على الشاطئ حتى حاذيت الصخرة (الروشة ١) ، تلك الصخرة القائمة في البحر كأنها الطاق العظيم ، أو كأنها قوس نصر ، أقامه الماء الهيّن اللين الذي انتصر بصبره وثباته في جهاده ، على هذه الصخرة العاتية المتكبرة ، فجعلها فارغة جوفاء ، ولا تزال على عتوها وكبرها سنة الله في المتكبرين ، لا يكونون إلا فارغين ... تلك التي يدعونها في بيروت صخرة الانتحار ، لأن المجانين أعداء أنفسهم وأوطانهم ، يلقون بأنفسهم منها يثبون إلى ... إلى جهنم ! وكانت الشمس مائلة إلى المغيب ، تمنح البحر آخر هباتها ، فيبدو براقاً لامعاً ، قد لبس حلّة من النور ، فأكبرت هذه المخلوقات : الشمس والبحر والصخر ، ووقفت صاغراً حيال عظمة الطبيعة وجلال الطابع (جلّ جلاله) ، ثم غلب عليّ هذا النشاط الذي أحسّ ، وبلغ دماغي فملأه ادعاء وكبراً وغروراً ؛ والمرء في فكره وعواطفه خاضع أبداً لحالة جسمه ، ودرجة صحته ، فرأيت هذا الصخر إلى زوال قد عبث به الماء ، والماء إلى ذهاب قد بخرته الشمس ، والشمس إلى غياب قد ابتلعها البحر ، ورأيتني وحدي الذي يبقى ، أنا الذي فتّت الصخر ، وأنا الذي أذلّ البحر ، وأنا الذي اتخذ الكون كله معمل تجارب لعقله وسخّره لنفعته ، وأنا الذي يحوي في صدره عالماً أكبر من هذا العالم ، ونوراً أبهى من هذه الشمس وعواطف أعمق من هذا البحر ، وأرقّ من هذا الماء ، وأشد من هذا الصخر ...

وذهبت إلى المدرسة ، وأنا أقول (أنا) ، والعياذ بالله من (أنا) فإنها كلمة إبليس... ذهبت ماشياً فأكلت من ساعتي أكل من لبث في البحر ساعتين ، ومشى ساعة كاملة ، من (الروشة) إلى الحرج ، وكانت سكرة النشاط ، ونشوة (أنا) لا تزال ضاربة في رأسي ، فذهبت مع الطلاب أمشي وأعدو وأثب ، وأفعل كل ما لا يفعل عاقل ، ولم أعد إلى المدرسة إلا غارقاً في العرق فشربت قازوزتين[1] مثلجتين من (القازوز) ، وصارعت ... واغتسلت بالماء البارد ، ونمت فأصبحت مريضاً !

* * *

(١) القازوزة - القارورة الصغيرة

يا لهذا المغرور الأحمق الذي أصاب ذرة من العلم ، وعبث بالكون عبث الوليد ، يرفع ويضع فلم يعد يرضيه إلا أن يدّعي الألوهية ، أو (يؤلّه هذا العلم) ... يا لهذه القوة الكاذبة ، وهذه السطوة الفارغة ، هذا القويّ الجبار الذي نتت الصخر ، وأذلّ البحر ، يذله مخلوق من أصغر مخلوقات الله ، لا تراه لهوانه العين ، يعيش الملايين منه في قطرة ماء ، مخلوق واحد من أضعف المخلوقات يلقي الإنسان محطوماً ، ويطيّر هذه الأفكار كلها من رأسه حتى يعود ذليلاً خانعاً ... فكيف ويحك لو أصابك الله بعذاب من عنده ؟ يا للأحمق المغرور !

* * *

أصبحت فإذا أنا قد نسيت أفكار الأمس ونسيت الأمس كله وأحسست بالبعد عن الدنيا التي آلفها وأحبها . ولقد انقطعنا مرة في قلب جزيرة العرب ، وتهنا في رمالها الموحشة سبعة عشر يوماً نسير وراء حدود العالم مع الوحش والآكام ، والشمس والعطش والموت ، فما أحسست بأني بعيد عن الدنيا ولا بلغ بي ذلك كله ما بلغ بي هذا المرض القصير ... لقد أصبحت بلا ماض ولا مستقبل ولا حاضر إلا هذا الحاضر الضيق الأليم الذي يستقر في بطني حيث (الزائدة) الملتهبة ، وفي خاصرتي حيث الرمل في الكلية . اصطلحت عليّ العلل ، واجتمعت التناقضات ، فالالتهاب لا يطفئه إلا كيس الثلج ، ونوبة الرمل لا يصلحها إلا الماء الحار ، فإن داويت هذه زدت تلك ، وإن عالجت تلك انتقضت هذه ...

* * *

أنساني المرض كل شيء ، حتى ما أذكر أني كنت يوماً من الأيام أمشي وآكل وأشرب واقرأ وأكتب وأمارس أنواعاً من الرياضة ، ولا أذكر أني كنت أستطيع التفكير في آلاف المسائل وأعالج الثابت من الأمور ، وماتت الدنيا في عيني ، وأصبح هذا الألم دنياي كلها ، فأنا أطلق الفكر من عنانه ، فلا يخرج عنه ، ولا يجول إلا فيه ، يتخيل أبشع أنواع المرض ، وأفظع ألوان الخطر ثم ينطلق الفكر إلى العملية التي أكد الأطباء أنه لا بد منها ، فلا يكاد يشرع في تصورها حتى تسود الحياة في عيني ، وأراها كلها ألماً وشراً ، وأتمنى أن لو كان أبي على مذهب المعري ، أو لو أن أمي لم تلدني ... ويوسوس لي الشيطان أن ما حق أبيك في أن يقضي عليك فيجيء بك ، أليست حياتك متعلقة بك وحدك ؟ فهل استشارك فيها ، أو هو قد ضحى بك وبحريتك وسعادتك في سبيل لذته ، أو هو لم يفكر فيك أبداً ، ولم تخطر له على بال ؟ ... فأرى الشيطان يريد أن يزيدني على مرض جسمي مرض ديني ، فألعن الشيطان وما جاء به ، وإن مما يجيء به الشيطان لما يسمونه فناً وابتكاراً وتجديداً ، ولكنه يبقى أبداً فناً شيطانياً ... أدع هذا وأعود بفكري إلى سرير العمليات الذي حملني اليه المدير مرة ووكل بي الممرضات ، وأقام عليّ طالبين يحرسانني ، وذهب إلى الطبيب يحضره فوثبت أحمل أوجاعي وأناضل دون حريتي حتى بلغت الشارع حافياً ، وركبت إلى الكلية أول سيارة رأيتها وأنجاني الله من العملية والأطباء . والأطباء — والرجاء عدم المؤاخذة — قوم برئوا من العاطفة وانبتوا من الشفقة[1] يشقون بطون الناس — نسأل الله السلامة — ويخرجون أمعاءهم فيضمونها في طبق ... ويكسرون جماجم البشر ، ويعبثون في أدمغتهم ويفعلون ما لو فعله غيرهم للحقه الشرط ، واصطف له القضاة ، وفتحت له أبواب السجون ، وأعدت له حبال المشانق ؛ ثم يتصدرون المجالس يفتخرون بأنهم أصدقاء الانسانية ... أفأعطيهم بطني ليشقوه ، ويردوني مريضاً بعد إذ أنا معافى وأتعجل الداء بنفسي ؟ أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين

* * *

لم يكن يفزعني شيء وأنا مريض مثل ما يفزعني الليل بسواده وامتداده . كنت أخافه أشد الخوف ، وأحسب لمجيئه الدقائق والثواني ، وأرقبه كما يرقب المحكوم ساعة القتل ، ذلك أني لم أكن أستطيع النوم ولا أطيق الجلوس ، وإنما أستطيع أمراً واحداً ، هو الاضطجاع على قفاي أحدّق في السقف ليلاً ونهاراً ... ولطالما رأيت في السقف بقعة سوداء ، تخيل إليّ لطول التحديق فيها ، أنها حية تريد أن تنقضّ عليّ أو رتيلاء كبيرة ذات تسع وتسعين رجلاً وعشرة رءوس ، أو مجموعة من

(١) هذا لسان الأدب ، أما لسان الحقيقة فينطق والله بشكر كبير جراحي بيروت الدكتور محمد خالد ، وكبير جراحي دمشق الدكتور الأديب مرشد خاطر ، وشكر الحكيم البارع الدكتور حسيب ياغي على وجه التخصيص ، فهو رجل وضع الله الشفاء في شخصيته العجيبة كما وضعه في علمه الجم . أما ابناء عمي الطبيبان فهما مني ولا يشكر احد نفسه ..

العقارب أو عفريت من الجن ، أو جنى من العفاريت ، فأصيح فزعاً وأنطلق أهذى هذيان محموم حرارته أربعون ...

إنى لأضحك الآن ، وأكركر من الضحك حين يعيدون علىّ ما كانوا يسمعون منى إذ أهذى ، وأرى فيه صورة واضحة لكثير مما نقرأ فى الصحف والمجلات ينشره أصحابه على أنه أدب ، ويقرؤه الناس على أنه ثرثرة وهذيان محموم !

وكان أحبّ شىء إلىّ وأنا مريض أن يكثر الناس من حولى ، ثم يتحدثوا شتى الأحاديث لأخلص من وحدتى وأتسلى عن ألمى وأذكر جانباً مما فى الحياة ... ولكنى كنت أسمع أصواتهم كأنها خارجة من جوف بئر سحيق ، أو أعماق مغارة بعيدة ، وأراهم من خلال ضباب كثيف ، فلا أتبين صورهم ولا أصواتهم ، وسرعان ما أملّ منهم وأطلب جديداً . كانت أيامى متشابهة متشاكلة ، فكنت أحب أن أجد كل لحظة شيئاً جديداً

ضعفت قواى وضاعت إرادتى ولم يبق لى طاقة على المشى ، ولا قدرة على المحاكمة العقلية ، ولم يبق حياً فىّ إلا لسانى ... أكل ذلك لأن جرثومة صغيرة دخلت جسمى ...؟ يالضعف هذا الإنسان القوىّ !

* * *

تألمت فى هذا المرض لكنى تعلمت . تعلمت فى الحياة درساً جديداً ، وما الحياة إلا دروس ... هو أن المرض نعمة ليس بنقمة ، وأنه لازم للإنسان لايدرك قيمة الصحة ولا يعرف معنى الحياة ولا يرجع إلى نفسه إلا إذا مرض ، هنالك يدرك معانى هذه الأشياء التى يمرّ بها وهو صحيح مراً سريعاً لأنه مشغول عنها بما لانهاية له من الصغائر والترهات ، وإن للمريض — قبل كذة الصحة — لذتين ، لذة هذا العطف الذى يحاط به والحب الذى يغمره ، ولن أنسى أبداً عطف مدير الكلية وناظرها علىّ وحبّ الطلاب إياى وإنى لأسيغ ذكرى الألم إذا تصوّرت هذين الطالبين اللذين كانا يقيمان الليل كله بجانبى ، إذا قلت آه أو انقلبت من جنب إلى جنب كانا واقفين أمامى . آثرانى على أهلهما وفضّلاَ راحتى على راحتهما ، أما عطف إخوتى وأهلى فلست أذكره ...

٩٠٦٢

ولذة أخرى ، وهى اللذة الكبرى التى يجدها ساعة يلجأ إلى الله ، ويدعوه مخلصاً مضطراً ، وكنت إذا وصف لى مريض به مثل ما بى اليوم ، يُدار بى من الرثاء له ، والخوف مما هو فيه فلما غدوت مريضاً ، لم أجزع ولم أخف ، وكانت تمر بى لحظات أضيق فيها بهذا القيد إلى السرير وهذا الألم ، ويبلغ بى الضيق فى الليل أقصاه ، ولكنها كانت تمر بى لحظات كنت أرضى فيها كل الرضى ، وأفىء فيها إلى ربى ، وأرى ما أنا فيه امتحاناً لصبرى ، ونعمة من الله تزيد فى أجرى ، فأطمئن ويبلغ بى الأمر إلى أكثر من الاطمئنان إلى نوع من اللذة الخالصة لا أشعر بمثلها فى الصحة ، وإلى لون من النشاط والقوة لا أعرفه قط وأنا معافى ، وأحسب أن لو أصبت بأشد الأمراض وأقواها ، وأنا أقدر على هذا الرضا ، وأحس هذا الاطمئنان لما وجدت فيه إلا لذة . هذا ما كنت أجده لا أبالغ ولا أتخيل ، فأرجو أن يصدقنى القراء ، وهذه نعمة من نعم الله الخفية على الانسان ، ومظهر من مظاهر القوة الهائلة التى أعطاه ، فلا يحكم الانسان على المريض أو البائس بظاهره . فيشك فى عدل الله ورحمته ، ولكن ليدخل إلى الداخل ، لعل وراء الجدار الخرب قصراً عامراً ، ولعل خلف الباب الضخم كوخاً خرباً ، ولعل فى هذه الثياب الرثة ، وهذا الجسم الممزّق البالى نفساً مشرقة سعيدة وإنساناً كاملا ...

* * *

وتعلمت من المرض أن المساواة التامة هى سنة الله فى الحياة . أنظروا المرض هل يعرف غنياً أو فقيراً ؟ هل يمتنع منه الملك الجبار رب القصر والحراس ؟ وهل تمنع أبوابه وجنده هذا المخلوق التافه الصغير من الدخول ؟ سد الأبواب ، وأغلق النوافذ ، وأقم الجند بالسلاح ، وعش فى صندوق مغلق ، إنه يدخل مع الهواء الذى تنشقه ، والماء الذى تشربه ، والطعام الذى تأكله ، ويحتل جسمك ، ويعيش فى عينك وفمك ، ويسبح فى دمك

ترفع عن المساكين ، وتكبر على الفقراء يرجمك المرض إلى صفوف المساكين والفقراء ، فتألم كما يألمون ، وتصيح مثل ما يصيحون ، وكل ما فى الحياة يسوّى بينك وبينهم ؛ هل تنشق أيها الغنى من الهواء هواء معطراً ، وينشقه الفقير بغير عطر ، أم إن الهواء وهو قوام الحياة لك وله ، قد سوى فيه بينك وبينه ؟